

احْتِدَام



إِنْسَانُ الْحَيَاةِ

احتِدام.

لم يكن في الأفق ما يُنذر، ومع ذلك كان الأفق مُريبًا؛ كأنه صفحةٌ ملساءٌ من سَحَجِ
أزرق، أُخفيت تحتها غلياناتٌ لا تُبصرها العين. السكونُ مُطمئنٌ في ظاهره، غير أنه
في باطنه أشبهُ بكمونِ نارٍ في عاهِنٍ من صوفٍ مُتراكمٍ، لا لهبٌ يُرى، ولا احتراقٌ
يُسمع، ولكن الرائحة.. الرائحة وحدها تُشي.

كنتُ ألتقطُ تلك الرائحة.

بارتجافٍ يتخللُ المفاصل، كأن في العظامِ ذاكرةً أقدمَ مني، تعرفُ ما لم يقع بعد،
وتستعيدهُ كأنه وقع. أمشي، ولا أمشي؛ أزاوُلُ حركاتٍ تُشبهُ العيش، غير أنني في
الحقيقة أقيمُ على تخومِ شيءٍ لم يُولد.

وفي داخلي، كان شيءٌ يُصمقُ،
ينقبضُ كجلدٍ لامسٍ صقيعًا مباغتًا.

أُخطيُ حين أصغي إلى ما لا صوتَ له؟
أم أنّ الصمتَ نفسهُ خطابٌ لمن يُحسِنُ الإصغاء؟

الأشياءُ من حولي مُسترسِلة، رخوةُ الملامح، كأنها تُساهمُ في خداعِ مُتقنٍ؛ الضوءُ
يُفرطُ في صفائه، والنهارُ يتبسّطُ كأنه لا يعرفُ الانقباض. حتى الريح، تلك التي
اعتادت أن تُحرّك الأُطراف، غابت، كأنها أُمسِكتُ في كفِّ غيبية، فصار الهواءُ
ديرانِيًّا، يدورُ حول نفسه ولا يمضي.

السكون حين يطول، يصيرُ مُتَّهَمًا.

كنتُ أرتبُ التفاصيلَ كما تُرتبُ يدُ مرتجفةٌ أدواتها قبل سقوطِ مُحتمِّمٍ؛ أقومُ ما اعوجَّ،
وأُسوي ما اختلَّ لأنني أُوجِّل. كأنني إن أحكمتُ القبضَ على هذه الجزئيات، نجوتُ
من انهدامِ الكلِّ.

ويا لوهمٍ يُتقنُ لبوسَ النجاة.

ثمَّة في صدري شيءٌ كأنه فتنةٌ كامنة، لا بمعناها المألوف، بل بما يُروى عن أصلها:
إحراقُ خفيٍّ، امتحانُ يُصهرُ فيه الجوهرُ حتى ينكشف.. كأنني موضوعٌ في كِيرٍ لا نارَ
فيه، ومع ذلك أدوب.

أُصهرُ الآن، أم أن الصهرَ لم يبدأ بعد؟

كلُّ اتجاهٍ يُفضي إلى ما أخشاه، لأنَّ ما أخشاه ليس جهةً، بل حالٌ ينسابُ في النسيج.
إلى أين أفرّ، إن كان المفرُّ داخلَ ما أفرُّ منه؟

أضحكُ أحيانًا سخريةً من هذا الإدراكِ المفرط؛ أن تعرفي، ولا تملكي أن تفعلي شيئًا.
أن تكوني كمن يُبصرُ البرقَ في عمقِ الغيمِ قبل أن يُومضَ، ويعلمُ أن الوميضَ قادم،
لا لأنه يراه، بل لأنه. تعلمُ كيف يقرأ الغيم.

الزمنُ لا يجري، بل يتناقل، كأنه مُتخَنٌ بشيءٍ لا يرى. اللحظةُ تتمدُّ حتى تكادُ
تنقطع، ثم تعودُ فتلتئمُ دون أن تُحدثَ حدثًا. وأنا بينهما، مُعلَّقةٌ في فلاةٍ لا حدَّ لها، لا
أبلغُ فيها نهايةً، ولا أعودُ إلى بداية.

هل هذه مُهلة؟

أم أنها هوةٌ مُعلّقةٌ بين هوتين؟

أصغي مرارًا،

ليس إلى صوتٍ حاضر، بل إلى اختلاجٍ مُستتر، كأنّ في البعيدِ هتّاتٍ خافتًا، أو رجفةً تُحاولُ أن تتكوّن. أقولُ: «لعلّه الوهم.» لكنّ الوهمَ إن طال استحالَ شبهَ يقين.

وهكذا.. أساكنُ ما لا أراه، وأجاورُ ما لم يقع.

تخطرُ لي فكرةٌ كطيفٍ عابر:

لعلّ العاصفةُ ليست حدثًا، بل معرفةٌ مُسبقةٌ بها.
لعلّها بدأت.. حين انتظرْتُها.

لكنّ الطيفَ يتلاشى، كأنّه أضعفُ من أن يُقيمَ في هذا النّقل. فيعودُ إليّ ذلك الصمتُ،
مُكتنزًا بما لا يُقال، وأعودُ أنا إليه، كمن يعودُ إلى قدرٍ لا يملكُ تبديله.

أنا هنا،

لا أستبقُ، ولا أستدفعُ،

بل أقيمُ على عتبةٍ ما لم يُفتح.

يدي فارغةٌ،

غير أنّها مثقلةٌ بما سيقعُ فيها.

وعيني على الأفق،

لا تُبصرُ شيئًا..

ومع ذلك،

لا تستطيعُ أن تُغمض.

فإن جاءت،
لن تكون دخيلةً،
بل كأنها كانت فيّ،
ثم تسرّبت إلى العالم.

-

تمّت، مع خالص حبي،
إيناس الجنّاوي.